تعدّد السُّبل

الإسلام بين حفظ الهويّة الحضاريّة للشعوب والتزام النظام الإسلامي

العلامة الدكتور
عبد الهادي الفضلي

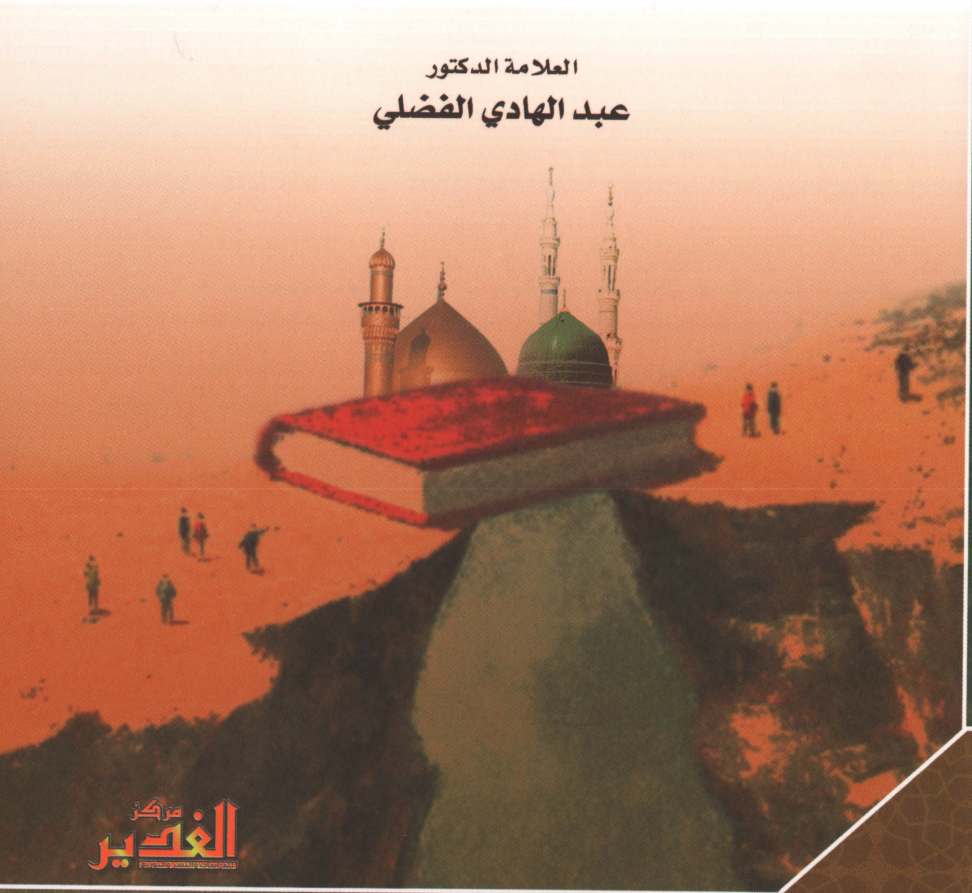

مركز الغدير
www.alqadir.net

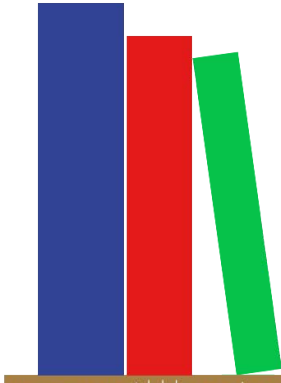

مكتبة
مؤمن قريش

لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)

moamenquraish.blogspot.com

تعدّد السُّبل

مركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

لبنان - بيروت - حارة حريك - شارع السيد عباس الموسوي - بناية مركز الغدير
تلفاكس: ٥٥٨٢١٥ / ٠١ ـــ ٥٥٢٢٦٢ / ٠١ خليوي: ٦٤٤٦٦٢ / ٠٣
ص.ب.: ٢٤/٥٠ - الرمز البريدي: ١٠١٧ - ٢٠١٠ - برج البراجنة

www.alqadir.org
www.alqadir.net

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م

أخرجت هذه الطبعة بإشراف
لجنة مؤلفات العلامة الفضلي
www.alfadhli.org

الحقوق جميعها محفوظة

لمركز الغدير للدراسات والنشر والتوزيع

ولا يحق لأي شخص، أو مؤسسة، أو جهة
إعادة طبع الكتاب أو ترجمته إلّا بترخيص خطي من إدارة المركز

تعدّد السُّبل

الإسلام بين حفظ الهويّة الحضاريّة للشعوب والتزام النظام الإسلامي

العلامة الدكتور
عبد الهادي الفضلي

مركز الغدير

الإخوة الأعزاء في **مركز الغدير للدراسات** والنشر والتوزيع

السلام عليكم

وأرجو إبلاغ سلامنا وتحياتنا الى
سماحة الشيخ أسدالله حسين حسني سعدي.

أرفق لكم مع الرسالة كتابي «**تعدد السبل**» و «**الإسلام والمفاهيم الضيقة**» لسماحة الشيخ الوالد في إخراجهما النهائي جاهزان للطباعة.

أرجو أن تلقى قبولكم.

ملاحظة: ما زلنا نعمل على الكتاب الثالث من مجموعة الفقه وهو كتاب **دروس في فقه الإماميّة** بخمسة مجلدات وسنرسله لكم عندما يجهز.
وسبب تأخيرنا انشغال بعض أعضاء لجنة المؤلفات، وقد أكملنا حتى الآن ٣ أجزاء ونعمل بالجزء الرابع.

مع خالص تقديرنا ودعواتنا
فؤاد الفضلي

تقديم

بسم الله الرحمن الرحيم

تمكّن الإنسانُ ممّا سخّره الله له على هذه الأرض من خيرات وثروات طبيعية، وبخاصّة مع ما نراه اليوم من تقدُّم علمي وفكري هائل، أصبحت معه الكثير من الأحلام سابقًا واقعًا يعيشه إنسان اليوم، وذلك بفضل الانفجار المعلوماتي والتقني الكبير الذي تشهده المجتمعات الإنسانية في عصرها الراهن.

ولكن الإنسان ـ مع كل هذا التقدُّم ـ تظلّ لديه طموحات دون التحقُّق، وهي طموحات طالما بشّرت بها المنظومات الفكرية طوال التاريخ، لعل أهمها البلوغ بالإنسان إلى مرحلة تحقيق العدالة والسعادة الاجتماعيين، وهي مرحلة لم تبلغها تلك المجتمعات الإنسانية التي تشهد تطوّرًا ملحوظًا فيما يتعلّق بحقوق الإنسان والحريات الفكرية إلى الآن، فضلاً عن أن تشهدها بقية المجتمعات الأخرى، ولعلّ لذلك أسبابه التي لا يمكن استعراضها في مثل هذا التقديم.

ولكن ما ينبغي الإشارة إليه هو أن الشعوب بدأت تتطلّع إلى منظومات فكرية بديلة تحقّق لها ما عجزت عنه أنظمة الحضارة الغربية، ذلك أنها وجدت في مبادئها وقيمها التي تدعو إليها سببًا للعديد من الأزمات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، كما أنها لم تحقّق المستوى المأمول من العدالة الاجتماعية، فلا تزال المجتمعات الغربية تعيش حالاً من الطبقية المقيتة والتعيسة فيما يرتبط بمسألة توزيع الثروات.

إن الإسلام اليوم يطرح نفسه بديلاً حضاريًّا عالميًّا، وهو بذلك ينافس ويتحدّى الحضارة الغربية، وذلك فيما يقدّمه من قيم ومبادئ وقوانين وفكر إنساني سامٍ ينسجم والطبيعة الإنسانية السليمة، وهو الأمر الذي دفع بالفكر السياسي الغربي إلى محاصرته تمهيدًا للمواجهة والصراع اللذين يراهما الغربيون أمرين حتميَّين، وبخاصّة بعد انهيار قطب النظام الاشتراكي الشرقي (الاتحاد السوفييتي السابق)، وذلك لعدم إمكانية تعايش هاتين الحضارتين جنبًا إلى جنب، وإذ ذاك لا مناص من حالة الصراع والتحدي والغلبة.

حول هذه المسألة يتحدّث علاّمتنا الشيخ الدكتور عبد الهادي الفضلي في هذه الدراسة، التي خصَّص فصلها الأول للحديث عن المفاهيم المفتاحية التي سيتناولها خلال البحث، وهي: السبُل، والنظام، والثقافة، والحضارة.

فيما يتناول في الفصل الثاني الموقف الفكري الغربي حول مسألة تعدّد الحضارات، مبينًا ـ من خلال بعض الشواهد ـ تفوُّق النظرة

الإسلامية في هذا المجال، حيث لا يتعارض التشريع الإسلامي مع تعدّد الحضارات، في الوقت الذي يشهد العالم تحوُّلاً مثيرًا نحو أحادية الحضارة والنظام.

ليكون الفصل الثالث الخاتمة حول الموقف العملي الإسلامي من تعدّد السُّبُل، وذلك من خلال الإشارة إلى الآلية التي اتبعها الإسلام في التعايش مع الحضارات والثقافات التي دخلت الإسلام، مبتدئًا بالحالة الوثنية والجاهلية في الجزيرة العربية.

والدراسة في الأصل محاضرة ألقاها الشيخ الفضلي ضمن البرنامج الرمضاني الثقافي في حسينية الناصر بمدينة سيهات في موسمه الخامس، في الليلة الثانية من شهر رمضان للعام ١٤١٥هـ، وقد وجدنا فيها مناقشة هادئة ومتقدِّمة لهذه الأفكار، فآثرنا تحريرها مع تصرُّف قليل في بعض التعبيرات ووضع العناوين الرئيسة والفرعية وبعض الهوامش، لإعدادها ونشرها في كتاب مستقل، آملين أن تعمّ بها الفائدة، متمنين للمؤلّف القدير دوام الصحة والعافية، وأن يوفقنا لإتمام مشروع نشر جميع مؤلّفاته وتراثه الفكري خدمةً لهذا الدين الحنيف الذي وطّن سماحة العلاّمة عمره في خدمته وبَذَلَ جلّ جهده وفاءً له.

حسين منصور الشيخ
لجنة مؤلّفات العلاّمة الفضلي
٩/ ١/ ١٤٣٢هـ

القسم الأول

نـصّ الـمـحـاضـرة

الفصل الأول

وقفة مع المفاهيم

- إن الحضارة الغربية عندما دخلت البلدان العربية والإسلامية غازيةً أوجدت حالاً من الصراع بينها وبين الحضارة الإسلامية، ولكنها لم تستطع أن تتمكن من القضاء عليها، إذ بقيت هذه الأخيرة تعيش في بلاد المسلمين وتهيمن على الكثير من جوانب الحياة لديهم، وهو الأمر الذي يجعل من الحضارة الإسلامية حضارة فيها قابلية الصمود والتحدي.

«تعدُّد السبل» من أهم موضوعات الساعة، ومن الموضوعات التي هزّت العالم هزًّا عنيفًا ولا تزال، وكل ما نجده الآن من اضطراب ومن عدم استقرار في هذا العالم، ومن الضحايا التي تذهب في سبيل الحق أو في غير سبيله، ومن الدماء التي تُراق في سبيل إعلاء كلمة الله أو في غير هذا السبيل، كلها نابعة من هذا الموضوع، ذلك أنه موضوع له أهميته الكبيرة الآن وفي هذا الظرف العالمي الذي نعيشه.

وقبل الدخول في بحث موضوع تعدّد السبل، لا بدّ من استيضاح المراد من «السُّبُل» في هذا السياق وبهذا الصدد:

السُّبُل مفهومًا قرآنيًّا

السُّبُل: جمع سبيل، والسبيل في ـ موضوعنا ـ: الطريقة التي يتبعها الإنسان في سلوكه وتعامله مع الآخرين، سواءً كان ذلك الإنسان فردًا أو جماعة أو أمّة أو دولة، فالطريقة التي تُتَّبَع في توجيه السلوك تسمى «السبيل»، وهذه التسمية مأخوذة من القرآن الكريم، يقول تعالى: ﴿قُلْ

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾[1]، فعبَّرت الآية عن الطريقة التي كان يتبعها النبي محمد ﷺ في الدعوة إلى الله بـ «السبيل»، وتأسيسًا على ذلك يكون معنى «تعدُّد السُّبُل» هو تعدُّد الطرق والمنهجيات التي يتّبعها الإنسان فردًا كان أو جماعة.

وهذا هو المعنى القرآني للتعبير الذي وضعناه عنوانًا للدراسة، ولكن ماذا يُراد بـ «تعدُّد السبل»/ «السبيل» في لغة هذا العصر وفي لغة السياسة، وكذلك في لغة علم الاجتماع، أو في لغة الإعلام، ماذا نريد بـ «السبيل» في لغتنا المعاصرة؟

تعدّد السبل مصطلحًا معاصرًا

حينما نطلق هذا التعبير اليوم، فإننا ـ في الواقع ـ نطرحه تساؤلاً مصيريًّا حول إمكانية تعدُّد الطرق والمناهج الفكرية: هل يؤمن الإسلام بتعدُّد هذه المناهج أم يفرض منهجًا واحدًا ووحيدًا يُلزم معتنقيه به؟!

هذا التساؤل هو محور حديثنا، وللإجابة عنه نمهّد لذلك بالإشارة إلى نقطة مهمّة في وقفتنا هذه مع المفاهيم، وهو أن المراد بالسبيل في عصرنا الحاضر حينما نطلقه في هذا السياق يُقصَد به واحدٌ من معنيين مفترقين، وقد يُقصَد المعنيان معًا مجتمعين، وهما:

المعنى الأول: «النظام»: الذي يُراد منه مجموعة الأحكام والقوانين

(١) سورة يوسف، الآية: ١٠٨

التي تنظّم حياة الناس، سواءً كان هذا النظام موضوعًا من قبل الله تعالى، أو من قبل الدولة، وبهذا المعنى يصبح التساؤل كالتالي: ما هو الأفضل: أن يكون للناس نظام واحد، أو أن يكون لديهم أنظمة متعدّدة؟

وللإجابة عن هذا التساؤل، نجد أنّ هناك خلافًا كبيرًا بين المفكرين في مختلف المجالات السياسية والفكرية والأخلاقية القِيَمِيَّة، فبينما يذهب بعضهم إلى أحادية النظام ـ وهي الدعوة القائمة في عصرنا الراهن، حيث نجد الدعوات المتكرّرة لإقامة النظام العالمي الجديد ذي القطبية الواحدة ـ نجد في المقابل من يرى من المفكرين إيجابية تعدّد الأنظمة والسبل، في حال وُجِدَ الطريق إلى أن يتعايش أنصار كل نظام وسبيل.

المعنى الثاني: «**الحضارة**»: بما تشمله من ثقافات ومظاهر عمرانية، وفي هذا المعنى يتردّد السؤال السابق، فهل تكتفي الإنسانية بحضارة واحدة تهيمن على جميع الشعوب والأمم، أم أن الأصلح للعالم أن تتقاسمه عدّة حضارات؟

الحضارة مصطلحاً معاصرًا

إنَّ الحضارة من المصطلحات والمفاهيم الاجتماعية[1]، وتسرّبت

(١) الحضارة ـ لغةً ـ مشتقّة من الحَضَر في مقابل البدو، والحضارة تقابل البداوة، وهما من المصطلحات الاجتماعية.

بعد ذلك من علم الاجتماع إلى مختلف العلوم الإنسانية الأخرى. ويشاركها في ذلك مصطلحا: «المدنيّة» و«الثقافة»، حيث نجد تعريفات متعدّدة لكل واحد من هذه المفاهيم الثلاثة، ولكننا لا نعدم أن نستخلص معنى كل مفهوم منها، وذلك من خلال مجموعة من التعريفات التي تذكر لذلك المفهوم.

فـ «**الثقافة**» يراد بها في استعمالنا الحديث: العلوم والآداب والفنون على اختلاف ألوانها وأنماطها.

بينما يراد من «**الحضارة**» معنًى أوسع من مفهوم الثقافة، ذلك أن الثقافة ـ بما تشمله مع العلوم والآداب والفنون ـ جزء من الحضارة، ويضاف إليها: القوانين والأنظمة والتشريعات والأعراف الاجتماعية الموجودة عند الناس، والتقاليد الاجتماعية الموروثة، فجميع هذه تدخل ضمن عنوان «الحضارة»، لذلك فهو مفهوم أوسع من سابقه.

وحينما نبحث مفهوم «**المدنيّة**» نرى أن مجموع ما يَرِدُ حوله من تعريفات تركّز على أنه يراد منه الجانب المادي من الحياة، ولنأخذ لذلك مثالاً توضيحيًّا: فالثلاجة في حال النظر إليها كجهاز تبريد تعدّ من مظاهر المدنيّة الحديثة، ولكنّ الفكر الذي أنتج الثلاّجة واستُعْمِل في تصنيعها يُعَدُّ من مظاهر الحضارة، إذ علينا أن نفرِّق ـ في ذلك ـ بين الفكر وبين المادّة، فما نجده من مبانٍ وآثارٍ عمرانية وغيرها من المظاهر المادية تعدّ من المدنية، بينما الفكر (الجانب المعنوي) الذي أنتج هذه المظاهر يعدّ من الثقافة التي هي جزء من الحضارة.

بين النظام والحضارة

وإذا أردنا أن نفرِّق بين النظام والحضارة بعد أن فسَّرنا السبيل بهذين التعريفين، نجد أن النظام يمثّل التشريع والقانون الذي يستعمل لتنظيم حياة الإنسان الفردية أو الاجتماعية، ذلك أن لكل دولة من الدول قانونها ودستورها الذي تنطلق منه في حفظ وتسيير أمور مواطنيها ويتحاكم بعضهم إلى بعضٍ وفقه، وينبثق عنه مجموعة من الأنظمة تسمى في أحيان كثيرة بـ«التشريع».

والتشريعات الدولية إما أن تكون مستمدّة من الأحكام الدينية ـ كما هو الحال مع الدين الإسلامي ـ، أو أن تكون من وضع المشرّعين والمقنّنين الخبراء في هذا المجال من بني الإنسان، وتسمى الأخيرة بالقوانين الوضعية، فيما تسمى الأولى بالتشريعات الإلهية أو الأنظمة السماوية، على اختلاف في التسمية والتعبير.

هذا فيما يرتبط بالنظام، أما الحضارة فهي تشمل ـ كما أسلفنا ـ التشريع وما هو أوسع منه، كالثقافة والأعراف والتقاليد والعادات .. إلخ، وهذا هو الرابط بين المعنيين من معاني السبيل.

تقسيمات الحضارة

ما نحن بصدد الحديث عنه هو توحّد المجتمعات الإنسانية على سبيل واحد (حضارة واحدة/ نظام واحد) أم سُبُل متعدِّدة (تعدد الحضارات/ تعدّد الأنظمة)، وفي حال تعدّد السُّبُل، ما هي العلاقة

المُتَصَوَّرة بينها؟

إننا في حال فسَّرنا السبيل بالحضارة، نجد أن كل أمة من الأمم لها حضارتها الراسخة والمتميّزة بثقافتها وعاداتها ونظامها الخاص، فالهنود في عصرنا الراهن امتداد لحضارة هندية قديمة وراسخة في المجتمعات الهندية، وكذلك الحال مع الصينيين الذين يرثون حضارةً قديمة لها ثقافتها وروحها الحضارية الخاصّة. كما أن المسلمين يمتدّ بهم التاريخ إلى موروث حضاري قديم لا يزال قائمًا في مجتمعاتهم المعاصرة، وحديثًا يشهد العالم بزوغ الحضارة الغربية وسيطرتها على معظم مفاصل الحياة العصرية، فهل العلاقة بين هذه الحضارات الموجودة علاقة صراع أم علاقة تعايش سلمي؟

إننا لا نعدم أن نرى تأثُّرًا وتأثيرًا من خلال احتكاك هذه الحضارات مع بعضها بعضًا، ولكن هذا التبادل والتأثُّر يختلف من حضارة إلى أخرى، وذلك تبعًا لطبيعة هذه الحضارة أو تلك، من حيث امتلاكها لمكامن القوّة وقابلية الاستمرار والصمود، ذلك أن الحضارات تقسّم تقسيمات عدّة، نذكر منها التقسيمين التاليين:

■ **التقسيم الأول**: إلى إقليمية وعالمية، حيث يراد بـ:

أ) **الحضارة الإقليمية**: الحضارة التي تقتصر على مجتمعها وأمتها التي انطلقت منها، وذلك مثل: الحضارة الهندية، إذ تعدّ حضارة إقليمية بما فيها من أنماط الفكر وغيره من العادات والتقاليد والفنون. وفي

السياق نفسه تقع الحضارة الصينية التي تعدّ ـ كذلك ـ حضارة إقليمية فيما تملك من ثقافة وأعراف اجتماعية.

ب) **الحضارة العالمية**، وهي الحضارة التي تملك المقوّمات التي تساعدها على أن تكون الحضارة الوحيدة في العالم، وهي الروح التي تتملّك الحضارة الغربية المعاصرة، وتوازيها في ذلك الحضارة الإسلامية.

وما يجعل المسلمين يؤسسون لحضارة عالمية هو ما يعتقدونه من أن الإسلام دين منزل للناس كافّة، ويقابلهم في ذلك ما يشعر به الغربيون اليوم من قوّة فيما أنشأوه من حضارة يرون فيها المقوّمات التي تساعدها على أن تكون حضارة العالم كله.

■ **التقسيم الثاني**: وهو انقسامها إلى حضارة منهزمة وأخرى صامدة، فالحضارات في واقع صراعها تنقسم إلى هذين القسمين:

- حضارة فيها قابلية الانهزام والضعف والضمور.
- حضارة فيها قابلية الصمود والتحدّي.

ولتقريب الفكرة أعطي مثالاً واحدًا هنا، فعندما ظهر الإسلام، كانت منطقة الشام ـ المعروفة اليوم بلبنان والأردن وسورية ـ خاضعة للسريان، والسريان من الحضارات القديمة التي نزل كتاب الإنجيل بلغة قومهم، ولكن الإسلام عندما دخل الشام انهزمت هذه الحضارة

أمامه وخضعت له، حتى إن اللغة السريانية طغت عليها اللغةُ العربية، فأصبحت الشام منطقة خالية من اللغة السريانية إلى يومنا هذا، وهي اللغة الأصلية في تلك المنطقة، وما هو موجود اليوم من اللغة السريانية ما يدرسه طلاب اللغات السامية القديمة في كليات الآداب، ولذلك تعد الحضارة السريانية من الحضارات المنهزمة تاريخيًّا.

وفي مثالٍ آخر مقابل، نجد أن الحضارة الغربية عندما دخلت ووفدت على البلدان العربية والإسلامية غازيةً أوجدت حالاً من الصراع بينها وبين الحضارة الإسلامية، ولكنها لم تستطع أن تتمكن من القضاء عليها، إذ بقيت هذه الأخيرة تعيش في بلاد المسلمين وتهيمن على الكثير من جوانب الحياة لديهم، وهو الأمر الذي يجعل من الحضارة الإسلامية حضارة فيها قابلية الصمود والتحدي.

الفصل الثاني

الموقف الفكري من تعدُّد السُّبُل

- الإسلام يفرّق ـ في نصوصه القرآنية الشريفة ـ بين الحضارة والنظام، إذ لا يتعارض الإسلام وتعدّد الحضارات الإنسانية، فيستوعبها جميعًا في نظامه الشامل، في الوقت الذي لا يقرّ بتعدُّد الأنظمة.

كان العالم منشغلاً بحالة الصراع بين العالم الرأسمالي والعالم الاشتراكي، بين أوروبا الغربية وأمريكا من جانب والاتحاد السوفييتي من الجانب الآخر، وبسبب هذا الصراع أُسِّسَ حلف شمال الأطلنطي (حلف الناتو) سنة ١٩٤٩م، الذي يقع مقرّه في مدينة باريس، وهو الحلف الذي يضمّ الولايات المتحدة الأمريكية ومجموعة من الدول الأوروبية الغربية وتركيا من الدول الشرقية، وذلك بهدف تسوية النزاعات التي تقوم بين الدول الأعضاء، فعندما تقوم نزاعات أو خصومات بين دوله الأعضاء من مهماته التدخُّل وحلّ هذه النزاعات. وبالإضافة إلى ذلك، من مهماته مسألة الدفاع المشترك، حيث يُعَدُّ الهدف الأهم والدافع الأبرز من وراء إنشاء هذا النوع من المؤسسات العسكرية، فعندما يُعتدى على دولةٍ من دوله الأعضاء فإن من واجب جميع الدول الأخرى المشاركة في الدفاع عن تلك الدولة المعتدى عليها، ومن أهدافه المعلنة ـ أيضًا ـ بذل المساعدات المالية المتبادلة.

ولاتخاذ القرارات في هذا الحلف يجب أن تتوافق دوله حول قراراته، حيث يتألف من مجلس وأعضاء للمجلس، غالبًا ما يكون

الأعضاء وزراء خارجية هذه الدول، أو وزراء الدفاع فيها، وفي حالٍ ثالثة قد يكونون مندوبين دائمين في الحلف، وربما يكون الأعضاء خليطًا من بين هذه المناصب السابقة.

الفكر السياسي الغربي وحفظ حضارته

ما أشرنا إليه أعلاه من أهداف تأسيس حلف الناتو هي الأهداف المعلنة، بينما الهدف الأساس الذي أنشئ من أجله هذا الحلف العسكري هو حالة الصراع المحتدم الذي كان ناشئًا حينها بين أنظمة الدول الغربية والنظام الاشتراكي في الاتحاد السوفييتي، إذ كان للحلف دور مخابراتي كبير في إسقاطه سنة ١٩٩٠م، فكان الحدث الأبرز والأهم في ذلك العام. وحول هذا الحدث العالمي تحدّث قادة دول أعضاء الحلف في ذلك العام كثيرًا في وسائل الإعلام، كان من بين أهم مَن تحدّث: الأمين العام للحلف الأطلسي **مانفريد فورنر** في مقابلة نشرتها آنذاك مجلّة **نيوزويك** المعروفة، وكان من بين ما قال إجابةً عن سؤال وجهه إليه المراسل الصحفي حول مبرّرات بقاء هذا الحلف بعد سقوط الاتحاد السوفييتي، إذ من المعروف في تاريخ هذه المنظّمة أنها أنشئت للوقوف في وجه السوفييت وللعمل على إسقاط الاتحاد، فكان جوابه التالي: «صحيح أن المواجهة مع الشيوعية لم تعد قائمة [وبخاصّة مع سقوط الاتحاد السوفييتي رمز الشيوعية]، إلا أن ثمة مواجهة أخرى يمكن أن تحلّ محلها بين العالم الغربي والعالم الإسلامي»، وكان التصريح بهذا النوع من الصراع مثيرًا، وهو ما جعل الصحفي ينتزع منه سؤالاً آخر حول كيفية تجنّب تلك المواجهة المحتملة بين الإسلام والغرب، ليجيبه

بقوله: «ينبغي أن تحلّ أوروبا مشاكلها، ليصبح النموذج الغربي أكثر جاذبيةً وقبولاً من جانب الآخرين في مختلف أنحاء العالم، وهذا يعني أن يتجه العالم إلى حل مشكلات دول هذه القارّة، بينما تُترك مشكلات بقية أنحاء العالم، وبطبيعة الحال إذا أردنا أن نقارن بين مجتمع ليس فيه مشاكل ومجتمع يرزح تحت نير المشاكل والأزمات، سنفضّل المجتمع الخالي من تلك المشاكل، وإذا فشلنا في تعميم ذلك النموذج الغربي، فإنّ العالم سيصبح مكانًا في منتهى الخطورة»[1].

وما نستفيده من هذا التصريح أن القائمين على هذه المنظّمة يبقونها على جهوزيتها وفاعليتها لأن مهمتها قد انتهت من جانب، ولكنها بدأت من جانب آخر، لتدخل عالم الصراع مع الحضارة الإسلامية، كما أن أمين عام حلف الناتو يرى أنه في حال لم تتغلّب الحضارة الغربية من خلال جذب الأنظار إلى نموذجها وبقيت الحضارة الإسلامية على صمودها وتحديها ليس هناك إلاّ الحرب للقضاء على هذه الحضارة المناوئة.

وما ننقله هنا هو رأيٌ لمفكر من مفكري السياسة الغربية في هذا المجال، وهو يعبر عن توجّه موجود على مستوى صناع القرار في عواصمه الغربية، حيث يدعو هذا الاتجاه إلى توحيد العالم في توجّه حضاري واحد، وإلغاء ما يضادّه من توجهات أخرى، وبخاصّة تلك

(١) انظر حول هذا الموضوع: حلف شمال الأطلسي واستهداف العالم الإسلامي، نبيل شبيب، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص ٧٤-٧٦.

الحضارات التي تملك خاصيتي: الشمول (العالمية) وعنصر الصمود والتحدي.

وفي هذا المجال ننتقل إلى رأي آخر من آراء المفكرين الغربيين، هو لرئيس الولايات المتحدة الأمريكية الأسبق (ريتشارد نيكسون)، وهو الرأي الذي استعرضه في كتابه (الفرصة السانحة)[1]، الذي يعدّ وثيقة سياسية مهمّة كُتِبَ حولها الكثير من التعليقات من كبار المفكرين والساسة الغربيين، حيث أوجد هزّة في الفكر السياسي العالمي؛ لأن مؤلفه نيكسون يغلب على مزاجه الحدّة والعنف في أطروحاته للحلول والمقترحات، ولذلك قد يولّد التصريح بها نوعًا من الصدمة للمتابعين والمحلّلين، وما نحن بصدد الحديث عنه في كتابه هذا هو حديثه المثير حول طبيعة العلاقة مع العالم الإسلامي، إذ يقول فيه: لأجل أن ينهض العالم الإسلامي من واقعه المتخلِّف أمامه ثلاثة خيارات، خياران ليسا في صالح الغربيين، وخيار واحد في صالح الغربيين، وهي:

الخيار الأول: خيار الرجعية:

الذي يُقْصَد به أن يرجع المسلمون إلى الدعوات القومية، بحيث يدعو العرب إلى قوميتهم العربية، والفرس إلى القومية الآرية .. وهكذا، وما تثبته الدراسات التي أجريت على واقع الدعوات القومية التي كانت قبل فترات تاريخية قصيرة أنها غالبًا ما تصاب بنوعٍ من

(١) صدر في طبعته العربية عن دار الهلال ـ القاهرة.

التعصُّب والتشنّج، وتعتمد على الجانب العاطفي، فالعرب عندما يدعون إلى عروبتهم، ستدفعهم هذه الدعوات إلى نوعٍ من التعاطف مع الشؤون العربية القُطرية، وسوف توحِّدهم هذه الدعوات نحو عدوٍّ واحدٍ مشترك، وهذا ليس في صالح الغربيين، وفي الوقت نفسه ليس في صالح العالم الإسلامي، حيث ستغلب القومية على حساب المبدأ والمعتقد.

الخيار الثاني: خيار الأصولية الإسلامية:

فلو تُرِكَ المسلمون يأخذون بأصوليتهم دون أن يكون هناك أي تدخُّل من الأنظمة الغربية للحيلولة دون ذلك، فإنه سيمهِّد لأن تطرح هذه الأصولية نفسها نظامًا قابلاً للتطبيق يوازي النظامين: الرأسمالي والاشتراكي، ليكون هو النظام العالمي البديل الذي ينتظره المسلمون، وشعوب أخرى تنتظر ولادة نظامٍ يخلف هذين النظامين الحاليين اللذين لم يلبيا لهم السعادة والرفاهية والعدالة المنتظرة، وتصبح الحضارة الإسلامية هي سيدة العالمين. وهذا أيضًا ليس في صالح الغربيين[1].

(١) مصطلح الأصولية الإسلامية مما مُلئت به وسائل الإعلام الغربية والشرقية، وكتب حوله الكثير، ومما يؤسف عليه أن الغربيين لا يفهمون أن الإسلام ـ كدين ـ فيه نظام عام للحياة، وفيه من المرونة ما يجعله قابلاً للتطبيق إلى يوم القيامة، فهذا أمر لا يدركونه، فهم قد يقرأون، ولكنهم إلى الآن لا يدركون هذا المعنى المهم للإسلام. فهم إلى الآن يرون أننا إذا دعونا إلى الإسلام وأردنا أن نطبقه في واقعنا ومجتمعاتنا ودولنا، فإننا في هذه الحال نرجع إلى الأصل الذي يمثّله عصر النبي محمد ﷺ، فالإنسان عندما يرجع إلى دين ظهر قبل أكثر من ١٤٠٠ سنة، فكأنه ـ في تصورهم ـ رجع إلى الوراء ١٤٠٠ سنة، =

الخيار الثالث: خيار التقدّم:

وفي هذا الخيار يطرح نيكسون تركيا نموذجًا أمثل للحياة الفُضْلى، فهي الدولة التي ينتمي مواطنوها إلى الدين الإسلامي، في الوقت الذي يحكمهم النظام العلماني الذي جاء به مصطفى كمال أتاتورك خلفًا للسلطنة العثمانية التي كانت تحكم وفق النظام الإسلامي، لذلك يطرحه خيارًا أفضل يصبّ في صالح القوى الغربية.

ونيكسون ـ هنا ـ في الوقت الذي يصوِّر تركيا أنها وصلت بنظامها العلماني إلى أوج التقدّم عندما رفضت الإسلام وأخذت بمبادئ العلمانية، ما يجعله يضعها نموذجًا للحياة الفاضلة للمجتمعات الإسلامية، يصرِّح بأن ذلك لم يَصْرِف الأتراك عن الذهاب إلى الخيار الإسلامي المتلزم بالقيم والمبادئ الإسلامية العليا، يقول في ذلك: «مع تقديم هذا النموذج الأمثل الذي تتمثّل فيه الحياة الفاضلة ـ وهو مجتمع تركيا ـ يظل المسلمون باقين على صمودهم يتحدّون الحضارة الغربية، ولا يريدون إلاّ الإسلام.

ولذلك فإن الموقف هو الصراع وتصفية الحضارة الإسلامية»، وهذا يعني أنه يؤمن بالحضارة الغربية حضارةً مسيطرةً ووحيدة على

وهذا منتهى الرجعية والتخلّف حسبما يفهمونه عن الأصولية الإسلامية، إذ من المفترض بالإنسان أن يتقدّم ويتطوّر؛ لا أن يرجع إلى عهد البداوة بما كانت تعيشه تلك العصور من الحياة العشوائية المتخلفة، وهذا ما يقصدونه هنا بالأصولية الإسلامية في عرفهم.

جميع الأنظمة الحاكمة في العالم[١].

وأسوق في المجال نفسه رأيًا ثالثًا، أنقله عن مجلّة «الشؤون الدولية» الصادرة عن جامعة كامبردج البريطانية التي تعدّ من الجامعات المرموقة عالميًّا في المستوى الأكاديمي، وكذلك فيما يرتبط بالدراسات والبحوث الصادرة عنها، حيث خصّصت المجلّة عددًا عن الإسلام والمسيحية والماركسية، انتهى فيها الباحثون في دراساتهم المنشورة إلى أن هذه العقائد الثلاث: (الإسلام والمسيحية والماركسية) لا يزال الإسلام ـ من بينها ـ نظامًا صالحًا للتطبيق والمعاصرة.

وهذه النتيجة التي توصل إليها الباحثون من المهمّ أن أوضحها بصورة أفضل، وذلك انطلاقًا من النظرية الاجتماعية التي مفادها بأن «المجتمعات الصناعية التي توجد فيها صناعات ثقيلة ـ كصناعة السيارات والبواخر والطائرات ـ لا يؤمن أبناؤها بالدين»، وهي نظرية سائدة في علم الاجتماع يستشهد القائلون بها بأمثلة ونماذج كثيرة.

وتأسيسًا على هذه النظرة في علم الاجتماع كان الرئيس الأندونيسي سوكارنو الذي كانت لديه ميولاً اشتراكية يطمح إلى إبعاد أبناء موطنه عن الدين، لذلك كان يذهب إلى أهمية تحديث أندونيسيا ـ وهي بلد زراعية من الدرجة الأولى ـ، وذلك من خلال الاعتماد ـ في زراعتها ـ

(١) انظر حول هذا الموضوع: الإسلام وأمريكا: حوار أم مواجهة .. تحليل لكتاب «الفرصة السانحة» لريتشارد نيكسون، الدكتور محمد مورو، دار الروضة ـ القاهرة، ط١، ٢٠٠١م.

على الآلات والوسائل الحديثة، بمعنى ألاّ يعتمد المزارعون على الأمطار والأمور الطبيعية فقط في ريّ مزارعهم، وبذلك يقل حضور الدين في نفوس الناس، ومن ثَمَّ يُنتزع الإيمان من قلوبهم، وبخاصّة في الأجيال الشابة والصاعدة، ما شجّع سوكارنو على أن يقدِم على هذه الخطوة، ولكنه لم يصل إلى مبتغاه منها، ولم يستطع انتزاع الإسلام من المجتمع الإندونيسي.

وهو مثال تقريبي لمخطّطات غربية كانت تتوقّع أن إغراق الدول الإسلامية بالوسائل الحديثة وتحديث مجتمعات المسلمين سيكون له الدور الفاعل في تغليب الثقافة الغربية على الإسلام في هذه المجتمعات، ولكن ما فاجأهم هو حضور الفكر الإسلامي في عقر دارهم، فها هو ينتشر في قلب أوروبا التي تحكمها النُظُم العلمانية.

من هذه الأمثلة الثلاثة أعلاه وسواها نستطيع أن نصل إلى أنَّ فريقًا من المفكرين الغربيين يرون في الحضارة الإسلامية تهديدًا لحضارتهم التي لا تتعايش مع حضارة أخرى تماثلها في الشمولية والقوّة، لذلك يذهبون إلى أحادية الفِكْر والحضارة.

الإسلام الحاضن للحضارات في ظل النظام الواحد

بعد تعرّفنا الموقف الغربي من مسألة تعدّد السُّبُل التي قد تعني النُّظُم أو الحضارات، لا بدّ لنا من وقفة أخيرة نتعرّف فيها النظرة الإسلامية من تعدُّد السبُل، ذلك أن الإسلام يفرّق ـ في نصوصه

القرآنية الشريفة ـ بين هذين المعنيين، إذ لا يتعارض الإسلام وتعدّد الحضارات الإنسانية، فيستوعبها جميعًا في نظامه الشامل، في الوقت الذي لا يقرّ بتعدُّد الأنظمة، يقول تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[1]، فهي إشارة إلى شمولية النظام الإسلامي، حيث يُستفاد من الآية أن الإسلام يؤمن بتطبيق النظام الذي يسود العالم، وفي ظل الإسلام يمكن أن تتعايش الحضارات الأخرى بالصورة التي لا تصطدم في بعض صورها وتطبيقاتها مع هذا النظام الإسلامي، فيمارس المسيحيون طقوسهم الدينية التي لا تتعارض مع الإسلام، وغيرهم من أتباع الديانات والحضارات الأخرى، باستثناء الوثنية التي لا يقبلها الإسلام دينًا وممارسة.

وهو أمر نفهمه بصورة واضحة من قوله تعالى في محكم كتابه الكريم: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾[2]، ذلك أن اختلاف اللغات والألوان يفرض نوعًا من اختلاف الحضارات وتعدّدها، وهي ما تَعُدُّه الآية علامةً من علامات القدرة الإلهية وصورة مشرقة في الطبيعة الإنسانية، ولذلك فإن الدين الإسلامي لم يفرض لغةً معينة على معتنقيه، كما ترك للمسلم حريته في كثير من الممارسات الفردية والاجتماعية الناتجة عن الثقافة والبيئة التي نشأ فيها ما لم يتعارض ذلك والأحكام الإسلامية، بل إن القرآن يجعل

(١) سورة التوبة، الآية: ٣٣.
(٢) سورة الروم، الآية: ٢٢.

مسألة تعدّد الثقافات طريقًا إلى التعارف وتلاقح العلوم والمعارف والفنون، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾[1]، فالشعوب والقبائل هي مجتمعات متعدّدة لكلٍّ منها أعراف وتقاليد وعادات لا يجد الإسلام أي غضاضة من المحافظة عليها واستفادة بقية المجتمعات الأخرى منها، وهي مسألة نجد تأكيدها بصورة أوضح في آيةٍ رابعة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾[2]، حيث يؤكّد المقطع الأخير من هذه الآية أن مسألة الاختلاف فيما بين المجتمعات الإنسانية أمر ينسجم والطبيعة الإنسانية التي فطر الله الناس عليها.

(١) سورة الحجرات، الآية: ١٣.
(٢) سورة هود، الآية: ١١٨.

الفصل الثالث

الموقف العملي من تعدُّد السُّبُل

- إن الرؤية التي يقدّمها الإسلام ـ نظريًّا وتطبيقيًّا ـ في التعامل مع الحضارات الإنسانية، تضع الإسلام نظامًا وفكرًا له القدرة على قيادة الحياة على هذه الأرض، بمرونة وصلاحية عالية، تعطي للإنسان الأمل في أن يعيش بسعادة وكرامة وهبتها له السماء.

يُعدّ القرآن الكريم المصدر الأمثل لتعرُّف مختلف الأنماط الحضارية للمجتمع الجاهلي، ذلك أن الشعر العربي المسمى بديوان العرب لا يصوّر لنا المجتمع الجاهلي في أنماطه الحضارية المتنوّعة، فالقرآن الكريم حينما يستعرض مسألة النظرة الجاهلية للخالق، نجده يفصّل هذه المسألة، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾[1]، حيث تؤكّد هذه الآية إيمان مشركي مكّة بالله خالقًا لهذا الكون، لكنهم يجعلون هذه الأوثان وسائط بينهم وبين الله، فلا يؤمنون به إلهًا معبودًا، ومدبِّرًا لمجريات الحياة اليومية.

وعندما نراجع أدبيات الفلسفة اليونانية القديمة ـ وهي من أقدم الفلسفات ـ نجد الفلاسفة اليونانيين يؤمنون بالله خالقًا للكون، ولكنهم لا يؤمنون به مدبِّرًا، حيث تسير شؤون الكون وتخضع لعملية العلل والأسباب المادية الموجودة فيما حولهم من طبيعة. وتوافقهم في

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٦١.

ذلك الفلسفة الرومانية، ولذلك وردت في أدبياتها هذه المقولة: «ما لله لله، وما لقيصر لقيصر»، فيؤمنون بأن تدبير الأمور بيد الإنسان الذي يتزعّمه في حينه قيصر الروم.

وعندما نصل إلى الفلسفة الأوروبية الحديثة، نجدها تؤمن بالله خالقًا، وتؤمن بالأديان الإلهية أيضًا، ولكنها تؤمن بالجانب العبادي من الدين، بحيث تظل بقية الأمور الحياتية المفصلية يتدبرها الإنسان بما يضعه من قوانين ودساتير وأنظمة.

الإسلام في معالجته للنظرة السائدة حول الإله

حينما صدع رسول الله محمد ﷺ بالإسلام دينًا جديدًا وسط البيئة الجاهلية التي كانت تؤمن بالله سبحانه خالقًا، وبالأوثان معبودات ومدبّرات لمجريات حياة الإنسان، عالج هذه المسألة بتأكيد صفة التدبير لله تعالى، ووحدة الخلق واستحقاق العبادة، يقول تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾[1]، فالخلق والتدبير صفتان لله تعالى ـ كما هو مفهوم هذه الآية التي تعضدها آية أخرى، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[2]، وهي مسألة عقائدية كان الإسلام لا يقرّ للأقوام المنضوية تحت نظامه أن تجاهر بخلافها.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٣.
(٢) سورة الأعراف، الآية: ٥٤.

ولقد كانت الآيات القرآنية الأولى تعالج كثيرًا من القضايا الفكرية، وذلك من أجل تصحيح النظرة حول هذه المسائل. وهذا ما كانت تقوم به الآيات على المستوى الفكري وما يُفترَض بالإنسان اعتناقه والإيمان به، وهذا لا يعني بحال أن يتدخّل الإسلام في المكوّنات الثقافية والحضارية الأخرى، بل على العكس، إذ نجد أن الإسلام ـ بهذا الخصوص ـ يقدّم نموذجًا متقدِّمًا في وضع الإنسان الموضع الصحيح، من حيث الطبيعة الإنسانية وما يضطلع به من دور في هذا النظام الكوني الفريد، إذ يعرض عليه العقائد والأفكار للإيمان بها، مع المحافظة على الهوية والبيئة الاجتماعية التي ينتمي إليها.

موقف الإسلام من الإنسان في الدور والطبيعة

ولبيان الموقف الإسلامي من الإنسان طبيعةً ودورًا بصورة أجلى، نمهّد لذلك ببيان موقف الحضارة الهندية ـ كمثال ـ من الإنسان، ذلك أن الحضارة الهندية التي تعدّ من بين أقدم الحضارات الإنسانية حضارة يطغى فيها الجانب الروحي على بقية الجوانب الأخرى، ولذلك تعدّ منبع الفلسفات الغنوصية التي هي تجمّع لأفكار مختلفة يجمعها التركيز على المسألة الروحية والمعنوية في الإنسان، ومنها وفدت على الإسلام الحركات والطرق الصوفية، وهي الحال التي تهمّش الإنسان تمامًا ولا تجعل له دورًا كبيرًا في مجريات الحياة، فالإنسان ـ وفق مبادئ الحضارة الهندية ـ مجبر في تصرّفاته وسلوكه العام، وليس له حرية أو إرادة مستقلّة، فإذا أراد الخلاص والراحة النفسية والسعادة المطلقة، عليه أن يفنى في المطلق وفي ذات الله.

ولذلك نجد أن الصوفي ـ في الثقافة الإسلامية ـ ينتقل من مرتبة إلى أخرى ومن درجة إلى ما يليها، حتى يصل إلى مرتبة الفناء في الله سبحانه، وذلك عن طريق تأملات وطرق معنوية يسلكها بعيدًا عن الأجواء الاجتماعية التي قد تكون أجواءً مشوِّشةً بالنسبة إليه. ولذلك نجد المتصوّفة أناسًا منعزلين عن واقع الحياة وشؤونها العامّة.

وعلى العكس من الحضارة الهندية، نجد الحضارة الغربية الممتدة من اليونانية القديمة إلى الحضارة المعاصرة التي تقترب من تأليه الإنسان، فالله ـ وفق هذه الفلسفة ـ خلق الكون وترك أمر تدبيره إلى الإنسان، بحيث وصل الإنسان إلى مرحلة يَعُدُّ نفسه قادرًا ومتمكِّنًا من كل شؤون الحياة، وبخاصّة مع ما وصل إليه اليوم من مبتكرات علمية متقدّمة، وهي مسألة يعرضها القرآن الكريم مستنكرًا على الإنسان أن يصل إلى هذه المرحلة من الثقة المبالِغة في النفس وقدراتها، يقول تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَـٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَـٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

بينما يعرض الإسلام رؤيةً للإنسان يضعه فيها الموضع الوسط بين التهميش والتأليه، فالإنسان ـ في الرؤية القرآنية ـ خليفة الله في الأرض، بمعنى أنه موكَّل على هذه الطبيعة، فيتصرَّف فيها موكَّلاً وليس مستقلاً، وذلك وفق وثيقة ومعاهدة بينه وبين الله سبحانه لها بنودها وأحكامها

(١) سورة يونس، الآية: ٢٤.

الضابطة لها، وهي ما تعبِّر عنها الرسالات الإلهية بـ«الدين».

إن هذه الرؤية التي يقدّمها الإسلام ـ نظريًّا وتطبيقيًّا ـ في التعامل مع الحضارات الإنسانية، تضع الإسلام نظامًا وفكرًا له القدرة على قيادة الحياة على هذه الأرض، بمرونة وصلاحية عالية، تعطي للإنسان الأمل في أن يعيش بسعادة وكرامة وهبتها له السماء، ودون مِنّة من نظام أو قوّة مسيطرة، كما هي الحال مع بقية الأنظمة والحضارات الأخرى.

■ والحمد لله رب العالمين ■

القسم الثاني

أسئلة المحاضرة

◄ الذي استطاع أن يعرّي الشيوعية من جميع أسسها الفكرية كان الشهيد الصدر ﷺ في كتابه «فلسفتنا»، فالكتاب حينما صدر وانتشر في العالم العربي، وبعد ذلك تُرجم إلى أكثر من لغة، كشف أن المسلمين ـ وبخاصّة من ينتمون منهم إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام ـ هم من استطاعوا أن ينقدوا الشيوعية نقدًا كان له أثره على الساحة العالمية.

الوعي الحضاري عند المسلمين

■ يعيش أفراد مجتمعنا صراعات فيما بينهم، تاركين وراءهم ما يحيكه الأعداء لهم، فهل من توجيه عملي يأخذ بأيدي الجميع إلى أن يكوِّنوا قوةً حضاريّة رائدة؟

الموضوع يرتبط بالوعي، فالمسلمون متى ما وعوا أهمية وجودهم في العالم وأهمية حضارتهم بين الحضارات الأخرى سيبتعدون عن هذه القضايا التي تسبِّب لهم التخلُّف والتأخُّر عن ركب الأمم الأخرى، وتغلق المجال أمام أبناء تلك الحضارات لاختراق مجتمعاتنا، ولذلك علينا أن نعي موقعيتنا التي نتسنمها اليوم، فالمسلمون اليوم في موقع يختلفون فيه عما كانوا عليه قبل خمسين سنة، حيث يُنظر إليهم الآن نظرة خاصّة، ويحسب لمجتمعاتهم الحساب المختلف؛ لأنهم استطاعوا أن يثبتوا وجودهم من الناحية الثقافية ومن الناحية الفكرية بصورة عامّة، والمحاولات جادّة الآن في الدول الإسلامية للتحوُّل إلى مجتمعات صناعية تملك الاقتصاد الضخم، فالاقتصاد له دوره في الهيمنة على

العالم، وما يرجوه كل غيور على هذا الدين أن يرقى أبناء مجتمعاتنا عن مثل هذه الخلافات التي تأتي بسبب قضايا من المفترض أنها تجمعنا لا أن تفرِّقنا، وذلك حتى نغلق الباب أمام اختراقات الأعداء، وبخاصّة أننا لا نزال في مرحلة من الضعف لا تؤهلنا لتجاوز بعض حالات التفرقة الموجودة في واقعنا اليوم.

دور المسلمين الفكري في إسقاط النظرية الشيوعية

■ ألم يكن للثورة الإسلامية دور في إسقاط الشيوعية عامّةً والاتحاد السوفييتي خاصّة؟ وما هو دور رسالة الإمام الراحل إلى الزعيم السوفييتي السابق غورباتشوف لمستقبل الإسلام في الاتحاد السوفييتي؟

دور المسلمين في إسقاط الشيوعية كان دورًا فكريًّا، فالمسلمون قاموا بمساهمة كبيرة في الردّ على مبادئ الشيوعية، فإذا حاولنا أن نعقد نوعًا من المقارنة بين الردود أو النقود التي كُتِبَت حول الشيوعية ـ وهي كثيرة ـ من قِبَل الغربيين والمسلمين، سنجد أن فاعلية الردود الصادرة عن المفكرين المسلمين كانت أكثر نجاعة وقوّة.

فممن كتب من الغربيين حول نقد الفكر الشيوعي العالم التربوي الأمريكي جون ديوي، ومن العرب غير المنتمين إلى الاتجاه الإسلامي الدكتور نوري جعفر أستاذ قسم التربية في جامعة بغداد، وإلى جانبه عباس محمود العقّاد ـ وإن كان في كتابته حول الشيوعية ما يؤخذ عليه

فيها ـ، وإلى جانب هؤلاء المئات، لكن الذي استطاع أن يعرِّي الشيوعية من جميع أسسها الفكرية كان السيد الشهيد محمد باقر الصدر ﷺ في كتابه «فلسفتنا»، فالكتاب حينما صدر وانتشر في العالم العربي، وبعد ذلك تُرجم إلى أكثر من لغة، كشف أن المسلمين ـ وبخاصّة من ينتمون منهم إلى مدرسة أهل البيت ﷺ ـ هم من استطاعوا أن ينقدوا الشيوعية نقدًا كان له أثره على الساحة العالمية، فأثبت أن هذه المدرسة لا يمكن أن تحقّق لأتباعها السعادة أو أن تنزل جنة المتقين على الأرض حسبما كان يبشِّر به كارل ماركس، وبخاصّة مع ما أنتجته التجربة الاشتراكية من توسع للطبقة الفقيرة، وتكدّس للثروات في طبقة معينة من الأثرياء أحدثت نوعًا من الطبقية الاجتماعية التعيسة.

أما فيما يرتبط بموقف الإمام الخميني الراحل ﷺ، فقد كان له دور فكري كذلك، وذلك من خلال محاضراته وأحاديثه العامّة التي كان يلقيها أيام الخميس والجمعة، حيث كان كثيرًا ما يهاجم المدرستين: الشيوعية الشرقية والرأسمالية الغربية، وهو الدور الذي خرّج به كوكبة من العلماء الذين يحملون فكره في نقد هذه المدرسة، ويضاف إلى هذا الدورِ رسالتُه التي وجهها إلى الاتحاد السوفييتي وتنبأ فيها بسقوطه وانتهاء الشيوعية وأفولها بخفوت نجمه.

ولذلك فإن الدور الذي مارسه المسلمون تجاه الشيوعية كان منحصرًا في الجانب الفكري، حيث كان هو الدور المتاح لهم، أما فيما يرتبط بالجانب العسكري ـ وبخاصّة المخابراتيّ منه ـ، فقد كان الدور

الأبرز فيه للغربيين، وبخاصّة دول حلف شمال الأطلسي، التي بذلت جهودًا كبيرة للإطاحة بنظام الاتحاد السوفييتي.

الإسلام يحافظ على الهوية دون الإخلال بالنظام

■ سماحة الشيخ، أشرتم في محاضرتكم إلى أن الإسلام يؤمن بتعدُّد الحضارات، مستدلين على ذلك بأن الإسلام لم يفرض لغةً واحدةً على الشعوب المنتمية له، لكننا نرى أنه أراد فرض اللغة العربية عن طريق تعلُّم القرآن الكريم، حيث لا تصحّ بعض العبادات إلا عن طريق قراءتها باللغة العربية، كما هي الحال في الصلاة وعقود النكاح وغيرهما، فما هو تفسير ذلك في نظركم؟

كما أننا نجد الإسلام يلغي بعض المظاهر المكوِّنة لبعض الحضارات أو الشعوب التي دخلت في الإسلام، فيحرِّم التبرُّج للنساء، والغناء ومجالس اللهو وغيرها، وهي تعدُّ جزءًا من تلك الحضارات أو ثقافات تلك الشعوب، أليس هذا إلغاءً للحضارة؟

في الإجابة، سأبدأ مع الشقِّ الثاني من السؤال، حيث إنني أشرتُ إلى نقطة كنت قد كررتها أكثر من مرة أثناء المحاضرة، وهي أن الإسلام يحتضن ويحتوي الحضارات التي يعتنق أصحابها الدين الإسلامي، ولا يفرض عليهم نمطًا حضاريًّا محدّدًا، ولكن هذا مشروط بألاَّ تصطدم

بعض المظاهر أو العادات والتقاليد مع أحكام الإسلام ونظامه العام، هذا فيما يرتبط بالشقّ الثاني.

أما ما يخصّ نشر وتعميم اللغة العربية، فإننا نرى أن الإسلام يعمل على تعميم هذه اللغة على العالم، ولكنه أمرٌ لا يتحقّق ـ حسبما تشير إليه الآيات القرآنية.

كما أن إلزام المسلم بقراءة بعض الآيات القرآنية في صلواته اليومية باللغة العربية، وكذلك التلفّظ في عقد الزواج باللغة العربية ـ كما يذهب إلى ذلك جمهور المسلمين، لا يعني ذلك إشهار اللغة العربية، فهي في موارد محدودة جدًّا لا تمكِّن المسلم من إتقان هذه اللغة، وهو أمرٌ يشعر به جميع من يعاشر المسلمين غير العرب، حيث نجدهم يصلون ملتزمين بهذه الأحكام ويتزوجون وفق تلك الآراء المُلزمة بالتلفظّ بالعربية، ومع ذلك تبقى لهم هويتهم ولغتهم الأصلية.

تحرُّك المسلمين من أجل قضاياهم العادلة

■ لقد ذكرتم بأن العالم الغربي دعا إلى حلّ مشاكله والتوجّه إلى العالم الإسلامي أو الحرب على الإسلام، في مثل هذه الحال، ما دور المسلمين للدفاع عن أنفسهم ولإبعاد مثل هذه الأخطار عن مجتمعاتهم؟

إن الدور الذي يقوم به المفكِّرون والسياسيون والعلماء المسلمون

جيّد، وله حضوره على المستوى العالمي، وهو دور قد يكون أقرب إلى النخبوية في هذا المجال، ولذلك قد لا يستشعره جمهور المسلمين، ويدلّ على هذا قوّة حضور العنوان الإسلامي في الدراسات والسياسات الغربية الذي قد تظهره بعض الملابسات في الإعلام الغربي.

وللتمثيل، أذكر مسألة الحجاب الإسلامي في أوروبا، حيث إننا نعيش في هذه الأيام إثارة هذا الموضوع في فرنسا، وكذلك في ألمانيا، وبسببه حدثت بعض المشكلات التي وصل الأمر فيها إلى حدّ القتل ـ كما هو الحال في ألمانيا، إننا نجد أن المسلمين يتحرّكون من أجل هذه القضية والدفاع عنها على مختلف الصعد والمستويات، فلها حضورها الإعلامي، والفكري ـ من خلال بعض المحاضرات والبحوث والدراسات، وكذلك على المستوى السياسي في العلاقات ما بين الدول الإسلامية وبعض الدول الأوروبية، وكذلك على الصعيد الاجتماعي فيما يرتبط بالعلاقة بين المرأة المسلمة المتحجبة وبقية أصناف المجتمع المحيط ومؤسساته التربوية والأكاديمية، وهذا التحرُّك لم يصل إلى هذا المستوى لو لم يكن ذلك الحسّ العالي بالمسؤولية، ولكن مستوى هذا الإحساس يختلف من بلد إلى بلد، ومن شعب إلى آخر، حسب الإمكانيات والظروف المتاحة.

■ والحمد لله رب العالمين ■

المحتويات

تقديم ٧

القسم الأول: نصّ المحاضرة..... ١١

الفصل الأول: وقفة مع المفاهيم..... ١٣

السُّبُل مفهومًا قرآنيًّا..... ١٥

تعدّد السبل مصطلحًا معاصرًا..... ١٦

الحضارة مصطلحاً معاصرًا..... ١٧

بين النظام والحضارة ١٩

تقسيمات الحضارة..... ١٩

الفصل الثاني: الموقف الفكري من تعدُّد السُّبُل..... ٢٣

الفكر السياسي الغربي وحفظ حضارته..... ٢٦

الإسلام الحاضن للحضارات في ظل النظام الواحد ٣٢

الفصل الثالث: الموقف العملي من تعدُّد السُّبُل..... ٣٥

الإسلام في معالجته للنظرة السائدة حول الإله..... ٣٨

موقف الإسلام من الإنسان في الدور والطبيعة ٣٩

القسم الثاني: أسئلة المحاضرة ٤٣

الوعي الحضاري عند المسلمين ٤٥

دور المسلمين الفكري في إسقاط النظرية الشيوعية..... ٤٦

الإسلام يحافظ على الهوية دون الإخلال بالنظام ٤٨
تحرُّك المسلمين من أجل قضاياهم العادلة ٤٩
المحتويات ٥١